

التربية الصوفية وسائلها ومقاصدها

الدرس
22

أهداف الدرس

1. أن أتعرف حقيقة التربية عند الصوفية ووسائلها.
2. أن أتبين غايات ومقاصد التربية عند الصوفية.
3. أن أتمثل مسالك التربية عند الصوفية في سلوكي.

تمهيد

خلق الله النفس الإنسانية وألهمها فجورها وتقواها، وأخبر بفلاح من زكاها، وخيبة من دساها، وشرع لعباده ما يؤدي لتزكيتها، ودلهم على سبيل فلاحها، ورغبهم في العمل لنجاتها، وبيّن أنواع النفوس وأحوالها. وقد سلك أرباب التصوف مسالك في تربيتها وتزكيتها. فما هي التربية الصوفية؟ وما وسائلها؟ وما هي مقاصدها؟.

نص الانطلاق

قال الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- في بيان ما يستعان به على سلوك طريق الجادة من العلوم والقواعد: «اعلم أن أصول القوم دائرة على قواعد أربع:

أحدها: اتباع السنة بالأدب، وهي داخلة في العقود، والقصود، والأقوال، والأفعال، والظواهر والبواطن، وتحقيق ذلك من كتب التوحيد بتحرير الاعتقاد وتأيينه، وكتب الفقه بتحقيق المناط وتحريره، وذلك مبنوث في كتب المحاسبي، ومدخل ابن الحاج، ومن جرى مجراهما من الأئمة.

الثاني: شهود المنة باستصحاب الشكر، ويجري ذلك في الجلب والدفع دينا ودنيا، علما وعملا وحالا، وعليه مدار طريق الشاذلية، وتحريرها في كتب ابن عطاء الله، وزبدتها في رسائل ابن عباد وشرحه، وما جرى مجرى ذلك.

الثالث: الإعراض عن الخلق وعن كل شيء منهم، حتى عن نفسك التي بين جنبيك، وذلك مبثوث في كتاب «منهاج العابدين» و «بداية الهداية» بوجه يجمع الظاهر والباطن في ذلك، ولا بن عطاء الله إمام به من حيث الباطن، والله أعلم.

الرابع: إفرااد الوجه لله سبحانه، وهو مقصود كل قوم بما أرادوه من طريقهم، لكن دخول الشاذلية فيه بأول قدم، وعليه دار كلامهم، قياما بقوله ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه» [صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل]. وقد أشبع في ذلك ابن عطاء الله رضي الله عنه، ونقح وهذب وحرر المقصود. [عدة المريد الصادق، ص 181].

الفهم

الشرح:

استخلاص المضامين:

- «ابن عباد»: ابن عباد الرندي عالم رباني من أهل العرفان، ولد بالأندلس، وتوفي بفاس سنة 792هـ.

- أستخلص من النص أصول التربية واتباع طريق الصوفية.

التحليل

أولا: مفهوم التربية الصوفية وأصولها

1. مفهوم التربية الصوفية

يقصد بالتربية الصوفية ما تميز به أرباب التصوف في طريق التربية والسلوك لتهديب النفس وتزكيتها، والرقى بها في مدارج السالكين، والوصول إلى مقام الإحسان.

2. أصول التربية الصوفية

للقوم وسائل ومسالك وآداب تميز طريقته في التربية والسلوك وتهديب النفس وتخليتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل، قال الشيخ زروق -رحمه الله-: أصول الطريقة خمسة أشياء:

- تقوى الله في السر والعلانية، وتحقيقها بالورع والاستقامة.
 - واتباع الرسول في الأقوال والأفعال، وتحقيقه باتباع السنة وحسن الخلق.
 - والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، وتحقيقه بالصبر والتوكل.
 - والرجوع إلى الله في السراء والضراء، وتحقيقه بالحمد والشكر.
 - والرضا عن الله في القليل والكثير، وتحقيقه بالقناعة والتفويض [أصول الطريق، ص 34 بتصرف].
- ودقائق علوم الصوفية منح إلهية، ومواهب اختصاصية، لا تنال بمعتاد الطلب فلزم مراعاة وجه ذلك وهو ثلاثة:

أولها: العمل بما علم قدر الاستطاعة. الثاني: اللجأ إلى الله في الفتح على قدر الهمة. الثالث: إطلاق النظر في المعاني ليجري الفهم وينتفي الخطأ ويتيسر الفتح.

وقد أشار الجنيد رحمه الله لذلك بقوله «ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمرء والجدال، وإنما أخذناه عن الجوع والسهر وملازمة الأعمال». [قواعد التصوف، ص 47 بتصرف].

ثانياً: مسالك التربية الصوفية

للتربية الصوفية مسالك متعددة:

- منهم من سلك طريق العبادة، واشتغل بكثرة الذكر والنوافل، وواظب على الأوراد، وهي أسلم الطرق ﴿أَوَّلِيَّةَ الدِّينِ رَبِّهِ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَأَوَّلِيَّةَ هُمْ أَوَّلُوا أَلَا تَلْبِثُ﴾ [الزمر: 17].
- ومنهم من سلك طريق الرياضات والمكابدات، وقهر النفس في المخالفات، وهي أفضل الطرق ﴿أَوَّلِيَّةَ يُوْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: 54].
- ومنهم من سلك طريق الخلوة والعزلة طلباً للسلامة من المخالطة، وهي أصح الطرق ﴿فَأَوَّلِيَّةَ مَا عَلَيْهِمْ مَرَسِبِيلُ﴾ [الشورى: 38].
- ومنهم من سلك طريق السياحة والأسفار والاعترا ب عن البلدان وخمول الذكر، وهي أوضح الطرق ﴿أَوَّلِيَّةَ الدِّينِ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: 15].
- ومنهم من سلك طريق الخدمة وبذل الجاه للإخوان وإدخال السرور عليهم، وهي أشرف الطرق ﴿أَوَّلِيَّةَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: 75].

- ومنهم من سلك طريق المجاهدات وركوب الأهوال ومباشرة الأحوال .

- ومنهم من سلك طريق إسقاط الجاه عند الخلق وقلة الالتفات إليهم، وترك الاشتغال بهم .

- ومنهم من سلك طريق العجز والانكسار، كما قال الله تعالى ﴿وَأَخْرَجُوا بِئْسَ لِقَاءِهِمْ جَلَدُهُمْ﴾ [التوبة: 103] .

- ومنهم من سلك طريق التعلم والمساءلة، ومجالسة العلماء وسماع الأخبار، وحفظ العلوم، وكل طريق يحتاج فيه إلى موفق ودليل يأخذ به فيه؛ ليسلم من الحيرة والفتنة. [آداب المريدين، ص 25 بتصرف].

ومما يعين على هذه المسالك:

- **إصلاح النفس بالتقوى**، قال الشيخ زروق رحمه الله «تلطيف النفوس بإصلاح التقوى، ثم تلطيف الأرواح بكباريت الاستقامة بعد تطهيرها من أوساخ البدع، ثم تلطيف الأجساد بأنواع التوجهات، وما هو إلا تهذيب، ثم تأديب، ثم تدريج ينتج وجود التقرب لكل من أهل له» [عدة المريدين، ص 190]. وأصول ذلك كله خمسة: علو الهمة، وحفظ الحرمة، وحسن الخدمة، ونفوذ العزيمة، وتعظيم النعمة [أصول الطريق، ص 36].

- **مطالعة كتب التصوف وموالاته أهل بالتألف والتعرف**، قال الشيخ زروق مبينا ما يجب على سالك طريق التصوف ومريده من «مراعاة إصلاح باطنه، والقيام على قدم الصدق في موطنه، ولجعل هجيراه مطالعة كتب التصوف، وموالاته أهل بالتألف والتعرف، فبذلك تتقوى أنوار إيمانه ويقينه، وتنتفى عنه العزة في العمل بوظائف دينه، ولا يقدم على ذلك إلا فرض العين وما يستجم به نفسه من التعب والأين، ولا يشغل نفسه بعلم يغير في وجه مقصوده، ويوجب له انتكاث موافقه وعهوده، وهو ما أكب الناس عليه اليوم، وحادوا به عن سنن القوم، حتى تطرق لهم بذلك من رذائل الصفات، وعظائم الآفات، ما أصارهم إلى الهلاك والشقاء، وأعقبهم النفاق في قلوبهم إلى يوم اللقاء، وسجل عليهم بالكذب في دعواهم أنهم قاصدون بذلك رضى مولاهم، فأياك وإياهم. » [عدة المريدين، ص 179].

- **تصحیح البدايات**، قال الشيخ ميارة رحمه الله: «النهايات لا تعلم إلا بتصحیح البدايات، كما أن الأبنية لا تقوم إلا على الأساس، وتصحیح البدايات هو إقامة الأمر على مشاهدة الإخلاص، ومتابعة السنة، وتعظيم النهي على مشاهدة الخوف وغاية الحرمة، والشفقة على العالم ببذل النصيحة وكف المؤونة، ومجانبة كل صاحب يفسد الوقت وكل سبب يفتن القلب». [الدر الثمين والمورد المعين، ص 543].

- **الجمع بين عمل الشريعة، وعمل الطريقة، وعمل الحقيقة**، قال الشيخ ابن عجيبة: «والأعمال عند أهل الفن على ثلاثة أقسام: عمل الشريعة، وعمل الطريقة، وعمل الحقيقة؛ فالشريعة أن تعبد، والطريقة أن تقصده، والحقيقة أن تشهده، أو تقول: الشريعة لإصلاح الظواهر، والطريقة لإصلاح الضمائر، والحقيقة لإصلاح السرائر، وإصلاح الجوارح بثلاثة أمور: بالتوبة، والتقوى، والاستقامة، وإصلاح القلوب بثلاثة أمور: بالإخلاص، والصدق، والطمأنينة، وإصلاح السرائر بثلاثة أمور: بالمراقبة، والمشاهدة، والمعرفة، أو تقول: إصلاح الظواهر باجتناب النواهي وامتنال الأوامر، وإصلاح الضمائر بالتخلية من الرذائل، والتحلية بأنواع الفضائل، وإصلاح السرائر، وهي هنا الأرواح بذلها وانكسارها، حتى تنهذب وترتاض الأدب والتواضع وحسن الخلق» [إيقاظ الهمم، ص 25].

طريقة المغاربة في التربية الصوفية

طريقة المغاربة في التربية الصوفية لا تخرج عن أصول القوم في التربية، غير أن لهم ما يميزهم عن غيرهم مما اشتهر عند رجالهم وفي كتبهم، ومن ذلك:

- **التدرج في التربية ومراعاة مراتب النفوس**، «وحق الشيخ ومن يقوم مقامه أن يطالب كل أحد بما تقتضيه قواه، من غير زائد على ذلك، فالعامي بالتقوى، والفقيه بالاستقامة، والمريد بالصدق، والعارف بالورع...، ومطالبة الشخص بخلاف ما تقتضيه قواه جور عليه، وللرجال في أوصاف النفوس ومعاملاتها مجال رحب، أحسنه النظر في حقائق النفوس، والعمل على مقتضى حالها» [عدة المريد الصادق، ص 189 بتصرف]. فإذا تطهرت الأسرار ملئت بالعلوم والمعارف والأنوار، ولا يصح الانتقال إلى مقام حتى يحقق ما قبله، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، فلا ينتقل إلى عمل الطريقة حتى يحقق عمل الشريعة وترتاض جوارحه معها، بأن يحقق التوبة بشروطها، ويحقق التقوى بأركانها، ويحقق الاستقامة بأقسامها، وهي متابعة الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله؛ فإذا تزكى الظاهر وتنور بالشريعة انتقل من عمل الشريعة الظاهرة إلى عمل الطريقة الباطنة وهي التصفية من أوصاف البشرية على ما يأتي؛ فإذا تطهر من أوصاف البشرية تحلى بأوصاف الروحانية وهي الأدب مع الله في تجلياته التي هي مظاهره، فحينئذ ترتاح الجوارح من التعب، وما بقي إلا حسن الأدب» [إيقاظ الهمم، لابن عجيبة، ص 25 بتصرف].

- **مراعاة أحوال النفوس**، ولهم في هذا المنهج التربوي طرق، قال الشيخ زروق -رحمه الله- «وطريق المغاربة، ومبناه على أوصاف النفوس المركبة فيها، وما أفسد حسننها وقوي سيئها، فإذا عرفوا ذلك قابلوه بما يصلح لإزالته أو إضعافه، وجريهم في ذلك على طريق أصحاب التدبير،

مستندين لقوله ﷺ: «الناس معادن كعادن الذهب والفضة» [صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة] قالوا: فأصل النفوس كلها الطهارة والاستقامة، كما أن أصل المعادن الذهب والفضة، ودخلت على هذه أوصاف البشرية المناقضة للعبودية، فأفسدتها كما دخلت الكباريت على الأخرى فأفسدتها، فيحتاج إلى النظر في تمييز العيب، ثم العمل في إزالته بوجهه الخاص به على مراتبه وترتيبه» [عدة المريد الصادق، ص 189].

– **لزوم الأذكار وتنظيم أوقاتها**، ومجرى ذلك عندهم بالذكر والاستغفار والترغيب في ملازمتها والحث على الإكثار من ذكرها، وإلزام المريد بالاعتبار والاقتداء بمن هو منه أعلى، قال الإمام أبو الحسن الشاذلي -رحمه الله-: «عليك بالاستغفار وإن لم يكن هناك ذنب، واعتبر باستغفار النبي ﷺ بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا في معصوم لم يقترب ذنبا قط وتقدس عن ذلك، فما ظنك بمن لا يخلو عن العيب والذنب في وقت من الأوقات» [الطبقات الكبرى، الشعراني، 4/2].

– **حسن الصحبة واختيار الرفقة**، وعلم التصوف «ليس هو اللقطة باللسان، وإنما هو أذواق ووجدان، ولا يؤخذ من الأوراق، وإنما يؤخذ من أهل الأذواق، وليس ينال بالقليل والقال، وإنما يؤخذ من خدمة الرجال، وصحبة أهل الكمال، والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح» [إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص 22]. ومن شواهد حرص المغاربة على تربية النفس بالصحبة ما ذكر عن الشيخ الإمام العارف المحقق الرباني أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزي -المعروف بابن عباد شارح الحكم العطائية وأحد تلامذة الشيخ ابن عاشر- أنه «لقي بسلا الشيخ الحاج الصالح السني الزاهد الورع أحمد بن عاشر وأقام معه ومع أصحابه سنين عديدة، قال رحمه الله: قصدتهم لوجدان السلامة معهم» [الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 84/4].

ثالثا: مقاصد التربية الصوفية

للتربية الصوفية مقاصد، وبعض تلك المقاصد يمكن أن تكون وسائل لمقاصد أخرى، ومنها:

– **الصدق مع الله وحسن المعاملة مع الناس**، وهما قطبا التصوف وأساسه، وقد تقرر عند القوم «أن التصوف شيئان: في الصدق مع الله تعالى، وحسن المعاملة مع الناس، فكل من صدق مع الله وأحسن معاملة الخلق فهو صوفي، والصدق مع الله تعالى هو أن يفني العبد حظوظ نفسه لأمره تعالى، وحسن المعاملة مع الخلق هو أن لا يفضل مراده على مرادهم ما دام مرادهم موافقا للشرع؛ لأن كل من رضي بمخالفة الشرع أو خالفه لا يكون صوفيا وإن ادعى التصوف يكون كذابا» [مجموعة رسائل الغزالي، ص 173].

– **دوام الافتقار إلى الله:** قال الإمام الغزالي – رحمه الله – «الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية، لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية القلب عن شوب النفس، ومعينه على هذه دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار يتقطن للكدر كلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفر منها إلى ربه...، فهو قائم بربه على قلبه وقائم بقلبه على نفسه، قال الله تعالى: ﴿كُونُوا قَوْمِي لِلدُّشْدَانِ بِأَلْفِ نَفْسٍ﴾ [المائدة: 9] وهذه لله على النفس وهو تحقق بالتصوف». [رسائل الغزالي، ص 103].

– **الافتداء بشيخ يرشد إلى الطريق،** قال الشيخ ابن عطاء الله – رحمه الله – «إنما يكون الافتداء بولي ذلك الله عليه وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشريته في وجود خصوصيته فألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد يعرفك برعونة نفسك، ويدلك على الجمع على الله، ويعلمك الفرار عما سوى الله، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله... يوفقك على إساءة نفسك، ويعرفك بإحسان الله إليك؛ فيفيدك معرفة إساءة نفسك الهرب منها وعدم الركون إليها، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه والقيام بالشكر إليه والدوام على ممر الساعات بين يديه...» [لطائف المنن، ص 71].

– **التزام أصول الطريقة،** قال الشيخ زروق «أصول طريقة الحق سبحانه أربعة: حفظ الحرمة، وعلو الهمة، وحسن الخاتمة، وشكر النعمة؛ فمن حفظ الحرمة حُفظت حرمة، ومن علت همته ارتفعت رتبته، ومن حسنت خدمته ظهرت كرامته، ومن شكر النعمة دامت نعمته... وأصول المعاملات خمسة: طلب العلم للقيام بالأمر، وصحبة المشايخ والإخوان للتبصر، وترك الرخص والتأويلات للحفظ، وضبط الأوقات بالأوراد للحضور، واتهام النفس في كل شيء للخروج عن الهوى، والسلامة من العطب والغلط. [أصول الطريق، ص 36].

رابعاً: ثمرات التربية الصوفية

– **التحلي بصفة العبودية،** قال الشيخ أبو بكر بناني – رحمه الله – «شرف أهل الله إنما هو في التحلي بأوصاف العبودية الذاتية من شهود الفقر والفاقة والافتقار وما أشبه ذلك، والخروج عنها مُفض إلى الحرمان في هذه الدار وفي تلك الدار، فلذلك تجد الفقير يتحفظ على فقره خوف أن يتطرق إليه الغنى فيفسد عليه فقره، كما أن أهل الدنيا يتحرزون من الفقر خوف أن يفسد عليهم غناهم. فافهم إن كنت ذا قلب ﴿وَمَا يَلْقَإُهَا إِلَّا الْعِيْسُ صَبْرًا وَمَا يَلْقَإُهَا إِلَّا الْوَحْشُ عَظِيمٌ﴾ [فصلت: 34] [الفتوحات القدسية، لبناني، ص 264].

- **الفناء في الله**، قال الشيخ زروق - رحمه الله - «اعلموا رحمكم الله أن التصوف له مقدمة حقيقية ونتيجة، فمقدمته: خشية الله، وحقيقته: صدق التوجه الى الله، ونتيجته: الفناء في الله. فالخشية مستفادة من العلم بالله، وبما جاء عن الله، ومظنته علوم الوعظ والتذكير. وحقيقته دائرة على التقوى والاستقامة كما أمر الله، وإفراد القلب والقالب لله. ونتيجته دائرة على كشف الغطاء، وتحقيق الإمداد والعطاء، وهو الذي لا يُنال بحيلة، ولا يُطلب بسبب سوى ترك كل غير، وعدم الالتفات لآثم ولا لبرٍّ. وفيه تبدو فوائد المعارف، وتظهر اللوائح للمريد والعارف، والحقائق للقلوب، فهو هبة من الله للمحبيب، لا تدفعها بلوى ولا تحققها دعوى. فمن طلبه بغير مقدماته من التقوى والاستقامة على آياته، والتجرد عن الخلائق بمرة لم ينل منه ذرة، ومن توجه لطلبه بغير ذلك لم يحصل منه على غير المهالك، ولكن من طلب التحقق بالكمال وجد في صدّفه الجواهر واللآلئ...». [مقدمة التصوف وحقيقته ونتيجته، ص 15].

التقويم

1. أبين وسائل التربية عند الصوفية.

2. أذكر مميزات مسلك الصوفية في التربية.

الاستثمار

قال الشيخ ابن عجيبة - رحمه الله - «فالطريق المستقيم هي التي تُوصل إلى حضرة العيان، على نعت الكشف والوجدان، وهي ثلاثة مدارج: المدرج الأول: إتقان الشريعة الظاهرة، وهي تهذيب الظواهر وتأديبها بالسُنّة والمتابعة. والمدرج الثاني: إتقان الطريقة، وهي تهذيب البواطن وتصفيته من الرذائل، فإذا تطهر الباطن، وكمل تهذيبه، أشرف على المدرج الثالث، وهو كشف الحقائق العرفانية والأسرار الربانية» [البحر المديد، 54/4].

أتأمل النص، وأستخرج منه ما يدل على اتباع مسلك التدرج في التربية الصوفية.

الإعداد القبلي

أبحث عن بعض مؤلفات المغاربة في التصوف.